## نزع الاستعمار عن المعارف ونظريّاتها المسافرة

سلوى لوست بولبينة

ترجمة: اسماعيل مهنانة

الكلمات المفتاحية: سلوى بولبينة، اسماعيل مهنانة، الاستعمار، المعارف، الاستغراب، الشرق، أوروبا.

إنّ الكلام عن نزع الاستعمار عن المعارف هو مساءلة تحويل الخبرات، وتنقّل الأفكار، والتساؤل حول ما نتعلّمه وما نعلّمه؛ ما يمكننا تعلّمه من الآخر أيًا كان ومن حيثما يأتي. إنّ اللامركزية التي يتضمّنها هذا الموقف، تشكّل ثورة كوبرنيكية جديدة. في هذه الثورة، يجب على الأوربيين أن يحقّقوا ما مُنح لهم من طرف الآخرين أكثر مما منحوه لأنفسهم. كيف تسنّى إشاعة معارفهم المتعددة والمتنوعة عبر العالم في عولمةٍ لا تشي دومًا باسمها، ولكن، أيضًا، كيف أدمجوا ضمن طريقة عملهم وتفكيرهم ما تأتّى لهم من الخارج. ولهذا العمل لا مناص من الارتحال الذي يحرّك المسافة بين الأوربيين وغير الأوربيين، فمن دون ارتحال، ومن دون ترحيل، لن تكون ثمّة أية هجرة.

ولهذا بالضبط، يتماهى إدوارد سعيد مع جوزيف كونراد (J. Conrad)، وهو يتكلّم عن نفسه، ولكن كونراد تنقّل من داخل القارة، بينما غيّر سعيد القارّة، وهو ما لا يعني الشيء نفسه، يجب إذًا، وضع الارتحال، الذي نتكلّم عنه، تحت علامة التنقّل بين الحدود، وتغيير القارات. إنّ هذا يفترض ويقتضي، كلّ مرّة تحديد ليس ما نرجوه فحسب من معرفة خاصّة (الأنتربولوجيا مثلًا)؛ بل، أيضًا، تحديد كيف يم تصوّر المعرفة نفسها. وبهذا المعنى، يكون نزع الاستعمار عن المعارف، أيضًا، ثورة إبستمولوجيةز إنّ سجّلًا لنظامٍ معرفيّ ما، في الواقع، يمشي على قدم المساواة مع تصنيفٍ للمعارف يثمّن المهندس، ويبخس المرقّع. ومع ذلك هل يمكن أن يكون هناك اختراع دون ترقيع، فلسفة دون فكر وحشيّ؟ نظريات مسافرة.. مُستحضِرة، تبقى الصيغة ملغزة مع ذلك.

لقد وسم إدوارد سعيد النزعة الكونية المتفردة ب «الصمت»، فهي؛ لكي تؤكّد ذاتها، بوصفها كذلك، تعتاج إلى فرض الصمت على هؤلاء الذين أُحيلوا، بالطبيعة، وليس بالمصادفة، خصوصيّة لا يملكون فكاكًا منها، مهما كانوا، ومهما فعلوا. هكذا يسجّل، في (الثقافة والإمبريالية)1، «أنّ الكونيّة الحديثة لأوروبا، والولايات المتحدة، تقوم على صمت العالم غير الأوربي، بإرادة أو من دونها، فبالإمكان إذابته وجعله تابعًا، حكمه مباشرة، وممارسة العنف عليه، ولكن من النادر أن نسمعهم يقولون: يجب الإصغاء إلى الشعوب المستعمرة، ومعرفة فيما تفكّر». في هذا النص (1992م)، يضع المفكّر إصبعه على امتناع الإرادة في المعرفة، والإرادة في الكلام. يمكننا، في الواقع، الإسكات بوساطة التكلّم ببساطة. يجب أن ننسى، هنا، أنّ الأدب المقارن والأنتربولوجيا يرتبطان مباشرةً بالإمبرياليّة؛ إي في العمق بالغياب المفترض للمُحاور النظير. في الواقع يبدو أنّ الأوربيين والأمريكيين

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - Edward Said, Culture et imperialism, Fayard,2000,p. 96et suivantes.

يجدون غوايةً ما في أن تكون لهم الكلمة الأخيرة. فالكلمة الأخيرة هي طريقة في الغواية بإدامة «نظام العالم»، وتثبيت سكون أفراده.

يجب عكس ذلك، بالنسبة إلى الكتّاب: «إخراج الأشكال الثقافية الغربية من أبراجها العاجية، حيث تتم حمايتها، وإعادة دمجها في العالم عبر الحركة التي ولّدتما الإمبريالية». أيّ هذا العالم المتحرّك هو بالضبط ما يزعج ويخيف؛ لأنّ موقعًا ما لن يكون له معنى إلا وهو مستقرّ، مثلما أنّ المكان لا دلالة له إلا مشغولًا. فما إن يتحرّك الآخرون حتى يُلِمّ الهلع بمن يتمسّك بموقعه، أو مكانته. ولهذا، إنّ الحركيّة تبدو، دائمًا، خطرًا سياسيًا، وشكلًا من الذكاء الفلسفي. وهي من أظهر سقراط مجادلًا ( وليس خطيبًا) مسلّحًا بارتيابه إزاء الأشياء ، متحوّلًا في الشوارع والممرات، متوقّفًا، أحيانًا عند المفترقات، إلى غاية الحدود المزروعة للمدينة. إنّ ارتحال المعارف لا يمكن أن يكون، إذًا قضيّة المتخصصين الموجودين حاليًّا، فحين شئل إدوارد سعيد، سنة (1992م)، حول «المثقّف الأوروبي» أشار إلى سلطته، ولكن، أيضًا، إلى الإغتراب الذي يسكن رطانة الاختصاصيين.

يقول سعيد: «أفترضُ أنه يوجد، أيضًا، حوف (مبرر) من ألا يستطيع الأنتربولوجيون، اليوم، مسح الحقل ما بعد —الكولونيالي، بالأريحية السابقة نفسها»  $^2$ ، إننا بجعل الأنتربولوجيا منعرجًا لترحيل المعارف، لا نأمن كوننا قد أُصبنا بالبرودة الخارقة – أي العلم – التي تنمو فيها أحيانًا، على الرغم من أننا ندين للإثنولوجي بأجمل مديح ممكن للترقيع. فبذهاب كلود ليفي – شتراوس (C.L.Strauss) إلى البرازيل، غادر الفلسفة، وفي الفرنسية، كما يذكرنا مهاجرنا بذكاء: «الترقيع هو ما ينطبق على لعبة الكرة، والبلياردو، والصيد، والفروسية، ولكن دائمًا لاستدعاء حركة طارئة: الكرة وهي ترتد، الكلب حين يزيغ، أو خروج الحصان عن الخط المستقيم لتفادي حاجز ما»  $^2$  إنّ هذه الملاحظات اللسانيّة من شأنها أن تجعلنا نفهم أنّه لا وجود لهجرة دون تحويل، أو باستعمالنا لفظًا معياريًّا، دون تسريب.

يمكننا القول إن للمهاجرين «علم الملموس»، إنهم يرقّعون بما هم عليه، بما يأتون منه، وما ينتهون إليه، وفي الواقع تكشف الهجرة عن مسافات معقّدة أكثر منها مسارًا خطيًّا. فحين لا نركّز على الأماكن، تلك التي نطلق منها، أو التي نصل إليها، فإننا نسأل عمّا مرّ به المهاجرون، ونبحث عن الفضاءات التي عبروها. نسائل، في النهاية، كلّ هذه الحركات الطارئة، التي صنعت الأسطورة والهوية، الترقيع وعلم الملموس. أن تزيغ وتحرف؟؟، أن تتفادى الحاجز وتقفز، أن تحاجر هو أن تلج الحركية، ليست تلك التي تبعد من مكان لكي تقرّبنا إلى آخر، ولكن تلك التي تحرّك في الرأس، وفي الجسد، في الرمزي والخيالي، أشباح الماضي، لمدة طويلة أحيانًا. لأننا نفكّر -كما يجدر بنا - في الرابط الذي انقطع أكثر من ذلك، الذي وُلد ومات في المحيط المألوف نفسه.

<sup>2</sup> - E. Said, Réflextions sur l'exil,2000, acte sud,208,p.389

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> -Ibidem,p.97.

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup> - Claude Lévi-Straauss, la pensée sauvage, plon, 1962, 26

بهذا المعنى الذي أقصده، لا توجد هجرة من دون ترقيع، دون أسطورة، ولا هجرة دون «فن» و «فكر برّي». وبهذا، أيضًا، يبدو كلود ليفي – شتراوس، بوصفه مُرقّعًا يدّعي أنه مهندس، وريثًا للتاريخ الطبيعي، يشرع في ترتيب العلاقات الاجتماعية وتصنيفها، ابتداء ب «البنى الأولية للقرابة». سأقول ذلك على عجلة، لتسجيل التمييز بين أدواته في التحليل وملاحظاته. ولهذا السبب فيما أعتقد، جاءت منعرجاته طويلة من أثر الترقيع، ثمّ من أثر الفن، ومن أثر القبّة الشهيرة في لوحة كلويه (Clauet) خاصةً. بهذا الخصوص، يبدو واضحًا أنّ ليفي - شراوس يشير إلى أنه: «بالفن، وبالنموذج المختزل، تكون معرفة الكلّ سابقة على معرفة الأجزاء» أ، وبعبارة أخرى التركيب يسبق التحليل، عوضًا عن أن يكون نتيجته. وبالمقارنة بين ليفي – شتراوس وسعيد، اللذين لا يتحدران من الأفق نفسه، واللذين لا يتحدان في المشروع نفسه، ولا بالمنظور نفسه سندرك ما يوجد من تمزّق، بالمعنى الحرفي للكلمة، في عملية التفكير «بين الثقافات» وليس في واحدة أو أخرى.

فكر منزوع الاستعمار، لا استعماري يقول بعض، مثل والتر مينوللو (W. Minillo)، هو فكر مرتحل. إن العالم البيني، أو العوالم البينية هي الفضاء الذي تستطيع أن تتحرّك فيه الأفكار اللااستعمارية، متحرّرة من سلاسلها؛ أي من أماكنها الخاصة المزعومة. ليس للأفكار أيّة جذور: لهذا، بالضبط، أمكننا تخيّل سماء للأفكار. لكنّها منغرسة في الذوات (بكلّ معاني هذه الكلمة، أحيانًا منغرسة كالأظافر التي تؤلم القدم). ولهذا كان نصّ سعيد المسخّر للعالم البيني بيوغرافيًا (حول كونراد)، وسيرذاتيًّا (حول نفسه)، نص البينيّة: ( Between).

كل الالتواءات اللسانيّة صالحة لوصف دقيق لهؤلاء، الذين تختلط لديهم عناصر إثنيّة وثقافيّة غير متجانسة. وبعبارة أخرى، إنّ التنقّل والهجرة كعوامل للتغيّر والتحوّل، تبقى مرتبطة، مهما كان الثمن، بالمألوف والمعروف، والمتحكّم فيه، وهذا صحيح من جانبين، لكن بشكل مختلف: فمن جهة المهاجرين، تكون الغواية كبيرة في توزيع الذات إلى شذرات متعدّدة. أمّا من جهة السكّان الأصليين، فإنّ الإدارة حازمة في معرفة من يكون هؤلاء الذين وصلوا من الخارج، أو من أي مكان آخر. يُحدث المهاجرون انكسارًا في المجتمعات، فبحضورهم يكسرون البداهات المضمرة، التي تشكّل الحسّ المشترك، وتعزّز التحالفات، بوجودهم، يزعج المهاجرون التسوية المستقرّة، التي بفضلها يتم الاعتقاد بنظام العالم، ولهذا، عادةً، تتم المبالغة في عددهم، والإفراط في تقدير أهمّيتهم.

المهاجرون هم مفسدو الحفلات الاجتماعية، حواجز للاستدارة التامّة، دائمًا يقفون في وجه الاكتمال، ويحيلونه إلى الكسور. فبدل أن يشكّلوا إضافة وتعددًا للمجتمعات تتناقض هذه الأخيرة وتنقسم. لقد ضاعت الوحدة إلى الأبد، وأطلّ التدهور اللامتناهي بأنفه. لا ينتمي المهاجرون كليّةً إلى دائرة المفهوم، ولا كليّةً إلى دائرة

.\_\_\_\_

اللاصدق؟؟؟ إنهم يشتغلون على اللامتجانس والمتنافر، وهم حوادث السير، من المنعرجات ومن العودات؛ سعيدة هي الرحلة، التي تريح الفكر، وتأسر النظر من ميناء إلى ميناء. فيما يغطس المهاجر في الثقافات، ينهمك الساكن المحلّي في عالم واحد، وفي كون وحيد.

إنّ تبعية العلم للسياسة تكون نتيجتها سوء معرفة عميق بما يمكن أن يعلّمنا إيّاه المهاجرون على الكوني، وهم من يشكّل، طوعًا أو إكراهًا، تكملة لخصوصيّة من شأنها أن تكون عيبهم بشكل متناقض. إنّ هذا الارتباط المكان والزمان، بالوطن، وبالتاريخ، يبيّن أنّ المكان والزمان، ولتاريخ، مخترقة بالتحرّك واللايقين، داخل شرط الهجرة. إنّ الهجران يجعل من المنازل منازل أشباح، أو أوكارًا لمدمني الأفيون، وينتج صورًا متقلبة، وإدراكات متطايرة، وخواطر تائهة. بهذا، أيضًا، وصفت جريدة (ليفربول ويكلي كورييه) ( Courier Weekly الصينيّيين في ليفربول ب «هيئات غربية تنبحس من الغسق، وتنتقل، وهي تجرّ أرجلها بقسوة شرقية، محدّقين بأعين ثاقبة تمتدّ في وجوهم المصفرّة تشبه الأقنعة، الضواحي صارت متنافرة، والشارع صار ينتمي إلى مدينة ليفربول الصينيّة» أ. لاغ تزال الخطابات حول المهاجرين تتكلم عن ثباقم ( بل على تقليديّتهم)، وبشكل فضولي ومتواتر، أكثر مما تفعل عن حركيتهم. ففي ليفربول، تمّ اعتبارهم كلّهم، ولمدّة طويلة، مدخّني أفيون؛ أي كسالي ونيام.

هذا ما يمكن أن يوضّع لنا الملاحظة، التي سجّلها لي غريغوري (Lee Grégory) في نص آخر: «إنّ نقص الاهتمام بعلم الصينيّات، من أجل تحديثه، وكون أنّ الاحتلال البريطاني لهونكونغ مثل الممارسات الثقافية لصينيي بريطانيا، هذا النقص يبدو لي أنّه ينتمي، مساء من الإخفاء، من طرف الغرب الاستعماري، إلى الصين الذي أنتجه هذا الغرب نفسه في القرن التاسع عشر  $^2$  إن رهاب الأجانب يشتغل في قلب التمثّل، الذي شكّله الإنجليز حول الصينيين، الذين يعيشون فوق أراضيهم (رهاب الأجانب لا يتعلق بالأماكن لكن بالأراضي)، صينيون مدمنو أفيون، ويعيشون داخل هذياهم وهلوساقم، ربّا يكون ذلك السبب في هذا التمثّل، الذي يقال إنه حقيقي، ليس، فحسب، فيما يخص الصينيين، ولكن كلّ المهاجرين. إنّ الفضاء الواقعي للوجود قد تمّ ملؤه بالظلال والأشباح، فهو، أصلًا، عبارة عن فراغ يحيل إلى نوع من انعدام الجاذبيّة، الذي يضرب كلّ هؤلاء الذين هم خارج بيوقههم.

\_ ب\_

أعلن إدوارد سعيد عن إعجابه بفوكو(M.Foucault)، ولا سيما في حوار معه سنة (1985م)، فهو يشكّل أعلن إدوارد معيد عن إعجابه بفوكو (معذّبو أحد مفضّليه. حين سُئل حول كتابين أساسيين لسنوات الستينيّات: (تاريخ الجنون) لميشيل فوكو، و(معذّبو

<sup>1</sup> Grégory Lee, « l'opium et le chinois dans les discours colonialiste ».

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> Grégory Lee, Textes, oublies, histories revue vacarme, n° 11, printemps, 2000.

الأرض) لفرانتز فانون، سلّم بالقول إنّ الثاني أكثر أهمية بالنسبة إليه. لأنه «يصف كفاحًا سياسيًا يجري إبان الثورة الجزائرية» فالكفاح الجماعي، الذي ينطوي ضمنه عمل فانون، يرفعه، في نظره، على العمل الفردي الذي يقوم به باحث، وهو يقدّم رسالة دكتوراه. هذا يعني أنّ النظرية تحمّه بقدر ما تكون منخرطة في الممارسةز وهو موقف لا يتقاسمه معه الجميع، فالواقع أن المفكّرين الفرنسيين الكبار في الستينيات، قد تجاهلوا كثيرًا، في تحليلاتهم النظرية، الكفاح ضد لاستعمار، والمضاد للكولونيالية، باستثناء مشهود لجان-فرنسوا ليوتار (J.F.Lyotard).

شاب مجاز في الفلسفة، يدرّس في ثانوية في قسنطينة بين (1950–1952م)، كان «المنعطف الجزائري»، بالنسبة إليه أكثر مما كان لبيير بورديو (P.Bourdieu). لقد جمعت نصوص ليوتار حول الجزائر بعنوان: (حرب الجزائريين) جاك دريدا ، مثلًا، لم يبد أي اهتمام خاص، على المستوى النظري، بالمسائل لاستعمارية، على الرغم من أنه ولد في الجزائر، وأمضى كل طفولته في الجزائر العاصمة، ربّما لأنه عاشها هناك، يعود سعيد، وهو من الجيل نفسه، إلى الاختلاف الأساسي بين فانون وفوكو، مبيّنًا أن «معنى الالتزام النشيط» غائب في أعمال فوكو الأولى، لكنه حاضر في أعمال فانون.

الاختلاف بالنسبة إليه، حاسم. تلقى فوكو (وأيضًا دريدا، وليةتار، ودلوز (G.Deuleuze)، من طرف الأمريكيين، لم يكن له المعنى نفسه الذي للهجرة الفانونية. بالنسبة إلى سعيد، يمثل فانون «نهاية العالم» أن كان ما يتمناه في حقل الاختلاط بين النظرية والممارسة هو إقامة «رابط بين فانون وأدورنو (T.Adorno)» أن العناية ، التي يوليها سعيد لما يجري عمليًا، حاسمة؛ فهي ما يسمح له بإدراك آثار التنقّل والهجرة، التي تتضمنها قراءاته. وهكذا، في حوار آخر أن بحده ينبه إلى أن الرواية الشهيرة لكونراد (في قلب الظلام) تصبح مختلفة جداً حين تتم قراءته من طرف الأوربيين، وحين تم اكتشافها من طرف أفارقة أ. إنه، في تلواقع، كما لو أننا نقرأ شيئًا ما لا ينبغي قراءته وراء ظهر شخص ما. فهنا نكتشف رؤيةً نكون نحن موضوعها.

إنّ الإختلاف النموذجي بين فوكو وفانون يتحكّم، بعمق، بما يجعل الأول في موقع القارىء الأوروبي لكونراد، في حين يجد الثاني نفسه في موقع القارىء الأفريقي؛ ثمّة عالم يفصلهما. وهو ما تبقّى من نقد وجّهته غياتري سبيفاك (Gayatri Spivak) إلى فوكو ودولوز<sup>6</sup>: عوض أن يتصوّرا نفسيهما بوصفهما ذواتًا خاصّة، يخيّلان أخّا ذوات شفّافة. عكس ذلك، يمكن القول إنّ فانون، في هذا الصدد، ذاتٌ مبهمة وضبابية تجعل من هذه الضبابية واحدة من موضوعاتها النظرية، كما نقرأه في (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء). ولهذا السبب، أحيرًا،

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> -Jean-François Lyotard, le guerre des Aljeriens, Galilée 1989.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> -Dans l'ombre de l'occident, op. 10-11.

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup> -Dans l'ombre de l'occident, op. cit. p.29.

<sup>&</sup>lt;sup>4</sup> -Entre deux cultures, 1996, op. cit. p. 53.

<sup>&</sup>lt;sup>5</sup> -Ibidimmp.538.

<sup>&</sup>lt;sup>6</sup> - Gayatri Spivak, Les Subalternes peuvent-il parler? Amsterdam.

نجد سعيد، كما أسلفت القول، ينتقد، في حوار (أوروبا وأغيارها: منظور عربي)، «المثقف الأوربي» أ. يمثّل ألبير كامي (A. Camus) صورتها الأكثر جلاءً، ولهذا بالضبط، لم يفهم، في رفضه الاعتراف بوجود أمّة جزائرية مسلمة، نموض وجهة نظر غير أوربية حول العالم. في نصّه المعنون بـ (الهوية والسلطة والحرية: المستبدّ والمسافر) يجعل سعيد من كامي مستبدًّا، ومن فانون مسافرًا، يشتغل المستبدُّ على الإقصاء، فيما يشتغل المسافر على الاحتواء  $^{3}$ .

إنّ من ينكر اللغات الهجينة والمزيج، الاختلاط والهجنة، يكون، يكون (عمليًا، ودون الحاجة إلى التفكير في ذلك) في صفّ المستبدّ، لا في صفّ المسافر. كتب سعيد، مثل الكثير من الآخرين: «لا أنتمي إلى عالم واحد، أنا عربي فلسطيني وأمريكي أيضًا، ما يمنحني منظورًا مزدوجًا غربيًّا، لكي لا مضحكًا» لم يبدو واضحًا، هنا أنّ سعيد، بدل أن يفكّر في دلالة الهوية، يفكّر في دلالة العالم. وهو، في حدّ ذاته، تنقّل جليّ، سفر بأكمله، عُمّة حكاية لستيفنسون (Stevenson) بعنوان: (المواطن والمسافر) تعطينا رواية مهمة جدًّا للسفر: «انظروا حولكم، يقول المواطن، هذا هو أكبر سوق في العالم..هه ليس كذلك بالتأكيد، يجيبه المسافر. قد لا يكون الأكبر، يقول المواطن، لكنه الأفضل بالتأكيد، يجيبه المسافر. قد لا يكون الأكبر، يقول المواطن، لكنه الأفضل بالتأكيد، أضمن لك ذلك. هنا أنت مخطىء، يقول المسافر، أستطيع أن أذكر لك... لقد تمّ دفن الغريب عند غشاوة الليل». إنّ المستبد، بحذا المعنى؛ أي المواطن في حكاية ستيفنسون، يرى أن العالم ينتمي إليه، بينما المسافر لا يملك أيّ عالم، فللأوّل السلطة، وللثاني الحرية.

إنّ ما تمّ فهمه هو أنّ ما يزعج أوربا، مع هذا النوع من السفر، اهتزاز سلطتها وسيادتها النظرية. في (تمثّل المستَعمَر: مناظرة الأنتربولوجيا)؛ حيث يعود سعيد إلى فانون لكي يبرز فكرة أنّ السفر هو حامل التواصل، وفي الوقت، الذي يعمل فيه كامي على القطيعة، يجتهد فانون في إنتاج الأواصر الصعبة. إنّ العمليات الذهنية، في الواقع، ومهما كانت غير مادّية، لا تعدم حدودًا خيالية ورمزية يُتوقّف عندها، وتنتج في الفكر آثارًا واقعيّة لزوايا ميّتة، ولمنظوراتٍ مائلةٍ. بهذا تدمّر الحركية الفكرية والأنطولوجيا لصالح الأنتربولوجيا، وتقوّض مفهوم الهوية.

تقودنا كلّ خطوة، إذًا، إلى تصوّرين: النظرية والممارسة، الهوية والعالم، السيّادة والسّفر، ولكي نسافر يجب إن نفهم أن النظرية تتمفصل عن الممارسة، ويجب أن نفضّل الحرية على السلطة، ألّا نراهن على الهوية، ولكن على العالم البيني، والهجرة تخلق العوالم البينيّة. فيما بين العوالم ليس علينا أن ننتظر نصًّا نظريًا، ولكن، في

<sup>1</sup> - Dans l'ombre de l'occident, op.cit.p, 57.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> - E.Said, Réflexions sur l'exil, Op. Vit.p. 497.

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup> - Ibidem, p. 508.

<sup>&</sup>lt;sup>4</sup> - Ibidem,p. 508-510.

<sup>&</sup>lt;sup>5</sup> - Ibidem,p. 687.

سيرة ذاتيّة، حيث يتماهى سعيد مع كونراد(J. Conrad)، ثمّة مقطع يعرض، ولكن بأسلوب مضمر، ما يتضمّنه السفر: غياب الحماية؛ أي أن تكون عرضة للمرض، وأحيانًا للموت.

يحيل غياب الحماية إلى العُرضة والإهمال، وسعيد يشتقه من المقاومة، والانسحاب والوحدة؛ من التحقّظ والعصامية. يرتبط الإهمال عند سعيد بالمنفى. إنّ السفر، الذي نعنيه هنا، ليس الذهاب والإياب الذي يحترفه رجال الأعمال، ولا هو الرحلات المنظّمة لهولاء السوّاح، الذين يزورون أكثر المناطق جمالًا، ولا هو تنقّل الباحثين الحامعيين، الذين يحاضرون في مكان من العالم. يتعلّق الأمر بشيء آخر: بالمنفى، الذي لا يكون جغرافيًا فحسب، بل مؤسّساتيًّا على وجه الخصوص. ولهذا، أيضًّا، يقرّب سعيد بين السنّة السبتية والانشقاق الدّاخلي، ولهذا يزاوج بين العوالم البينية والعصامية: «كنت دومًا منجذبًا –يقول – إلى العصاميين العنيدين، بعدّة مثقفين من مثقّفي القطيعة». وفي جزء منها، بسبب «عدم الاكتراث بوجهات نظرهم الخاصّة» أ. العصامي هو ذاك الذي يتعلّم من دون معلّم، وبعبارة أخرى، هو من لا يأبه للسلطة؛ إنّه ذاك الذي يعلّم نفسه، ذاك الذي لا معلّم له، «الذي تعلّم دون معلّم». العصامي، بمذا المعنى، حين نتكلّم فكريًّا، يتيمٌ. ولهذا فإنّ تجربته الشخصيّة تعتمد كثيرًا على بناء معارفه. ولهذا أيضًا، يبقى عصيًا على التقليد.

إنّ نظرية مسافرة ليست نظرية ممأسسة، إنّما أيضًا واقعة شخصيّة مزعجة، أمثال فانون وسعيد، ممّن لهم «ماضٍ صعب وغير قابل للذوبان». وهكذا ، نجد سعيد، على غرار فانون، يكتب ويفكّر بطريقة طِباقية. هذا المصطلح الموسيقيّ الأصل أساسيّ لدى سعيد. ينحدر لفظ طِباق من اللفظ اللاتيني ( a morticlum المصطلح الموسيقيّ الأصل أساسيّ لدى سعيد. ينحدر لفظ طِباق من اللفظ اللاتيني ( punctus contra punctus بانزياح السطور النغمية، ويقع في أساس التعدّد الصويّ، وهذا هو تعريفه: في الموسيقا، نسمع بالتعدد الصويّ، وبتآلف عدّة أصوات مستقّلة، على الرغم من ارتباطها الواحد بالآخر، بقانون التناغم، وبالتوسّع، إنّه القدرة على عزف عدّة نوتات مرّة واحدة، وهنا نتكلّم على آلة متعدّدة الأصوات. وهكذا، بعد فانون، يتبيّن لنا أنّ سعيدًا بعيدٌ جدًا عن الصّوت الأحادي لميشيل فوكو. ويتبيّن، أيضًا، أنّه حسّاس جدًا للحواريّة بدل الخطاب.

للتعدّد الصوتي، أيضًا، تلقّ أدبي؛ فاللفظ ينحدر من الكلمة الإغريقية (بوليفونيا) (polyphonia)، التي تعني، اشتقاقًا، «تعدّد الأصوات أو الألحان». أُدخل اللفظ من طرف ميخائيل باختين (M.Bakhtine)، بعد استعماله في المعجم الموسيقي الصوتي. يشير اللفظ إلى عملية الكتابة، التي تقوم على تراتب سطرين، أو عدّة أسطر أو أصوات، أو مقاطع مستقلّة، نغميًّا. وحسب القواعد الطباقية. ثمة تنضيد للألحان، للمصادر اللفظية داخل الملفوظ نفسه. أما بالنسبة إلى باختين، فإنّ، البوليفونيا الحوارية هي ميزة الرواية الحديثة، ولا سيّما عند دوستوفسكي (F.Dostoïeveski): «إنّ مفهوم التساوق/ التعدد الصوتي، الذي

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - Ibidem, p. 596.

نعود إليه، عادةً، نظرًا إلى قدرته على الاستحضار، يطرح، منذ البدء، مشكلات تتعلّق بالتعريف والمصطلح، كما يطرح، في الوقت عينه، مشكلات تحديد الميادين؛ فتعريفه يتغيّر بحسب التخصص الذي يستخدمه، وحقل تطبيقه، فهل نكون قد حاولنا، دون اللعب على الكلمات، أن نقول إنّ التساوق في منتهى الحوارية... لا نستطيع البتة مناقشة أنّه بموجب علاقات: تساوق/حواريّة، تساوق/ تناصّ، تساوق/ أجناس أدبية »1. إنّ التساوق يستبعد البدائل وإقصاءات أخرى.

لا يقترح سعيد أبدًا تعريفًا ما، فهو على العكس، دائمًا، يغلّف موضوعه، ويحدّه بطريقة جامعة واستعارية؛ إخّا إحدى خصائص أسلوبه في التفكير. إننّا لا نستوعب مفهوم النظريات المسافرة، في معناه الأكثر ثراءً، والأكثر ملموسيّة، إلا في شكل حزمة. إنّ الخلط بين النظريات المسافرة ومفهوم التلقّي، عند سارتر، أو فوكو، أو دولوز، يؤدّي إلى النقيض. إنّ السفر هو واقع الذوات المتنقّلة، المرحّلة من تلقاء نفسها، مختلطة، وبينيّة العوالم، وليست واقع أفراد؛ حيث لا يكون السفر ضرورة؛ بل تسلية، ليس معاناة؛ بل متعة، وليس عجزًا للذات؛ بل إثباتًا للذات، بمذا المعنى، يرتبط السفر بشكل حميميّ بالسلبية، والانفتاح (بهذا، نفهم أفضل حضور أدورنو في كتابات سعيد). كما أنّنا حين ننتظر تعريفًا يقترح علينا سعيد استعارة، حين ننتظر سردًا يمنحنا تحليلًا.... إلى نثر سعيد، مثل نثر فانون، مركّب. ينفلت من الأوامر، ولا يبحث عن إرضاء التوقعات.

يجب، أيضًا، استعادة شيء مهم، وهو أنّ سعيدًا يربط، دومًا، الملفوظات بالتلفّظ. إنّ جمع الملفوظات بالتلفّظ من شأنه أن يجنّب السقوط في أخاديد المركزيّة الإثنية والمركزية الأوربية. فالذات في الواقع، إذا لم تكن حاضرة في الملفوظ تكون حاضرة في التلفّظ. وهذه الوصلة هي التي تكون، في العمق، حلّاقة للتطابق والتساوق. إنّ ما يميّز مثقفي العالم الأوّل، كما يقول التابعون، هو هذا القطع بين التلفّظ والملفوظ، بيم ما هم عليه، وحيثما هم، وبين ما يقولون. يمكننا، من هنا، أن نحدد ما معنى خطاب المؤسسة: إنّه ملفوظ منقطع تمامًا عن تلفّظه، ملفوظ منقوص التفكّر. ما إن يكون العصامي متعذرًا عن التقليد، يفهم ذاته بشكل أفضل: فنحن نستطيع استعادة ملفوظات، وليس عمليات تلفّظ، وهنا تأخذ الكتابة خطواتها على الكتابات البسيطة.

يمكن تفسير التقارب بين سعيد وفانون بموجب الموقع، الذي يحتلّه كلاهما في الجغرافيا الكولونيالية؛ فالاثنان تمّ طردهما من وطنيهما من طرف المعمّرين، ولو بشكل مختلف. أمّا التقارب بين سعيد وأدورنو، فيمكن تفسيره بالمنفى الذي عرفه الاثنان لأسباب سياسية. مع فانون، ومع أدورنو، يتقاسم سعيد تجربة اللاسكنى. في حوار مع هذا الأخير، يعطي لذلك سببًا: «الكاتب ليس حتى الحقّ في السكن في الكتابة» (أدورنو). «في أفضل الأحوال، يمكن أن نحصل على رضا مؤقت سرعان ما يُخترَق بالشك، وبالحاجة إلى إعادة كتابة، وإعادة صياغة، ما يجعل النص غير قابل للسكن، لكنّ ذلك أفضل من الاستسلام لبلادة الرضا عن النفس، أو قدرية

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - Claire Stolz, «La notion de polyphonie».

الموت» 1. إنّ حياة الترحال لا يمكن تجنبها بقدر ما يصبح كل سكن نصيًّا، كل مأوى فكريًّا، عابرًا ومؤقتًا. يقر سعيد أنّه تعلّم من أدورنو أنّ: «قضيّة خاسرة أفضل من قضية منتصرة، وأنّ وعيًا بالمؤقّت والمشروط - بيت مؤجّر مثلًا - أفضل من الاستقرار المتملّك لملكيّة ثابتة » 2. فالكراء يمكن أن يحمل للمرء ثمارًا أفضل مما تفعل الملكية.

في (1983)، نشر سعيد «النظرية المسافرة»، في كتاب بعنوان: (العالم والنص والناقد)؛ حيث بدأ بملاحظة أنّ الأفكار والنظريات تسافر من شخص إلى شخص، ومن وضعيّة إلى وضعيّة، ومن مرحلة إلى مرحلة. تخلق هذه السيرورة تأثيرًا لا واعيًا من شأنه أن يصوغ طريقتنا في التفكير. فمن الأهميّة بمكان، إذًا، هذه الأسفار النظرية من ثقافة إلى أخرى، التي تفتح ممرات جديدة. سيحيل سعيد، بعد عشر سنوات، إلى هذا النص في عودته الشهيرة إلى النظريات المسافرة، فبشق طريق آخر يستكشف سعيد العلاقة بين الممارسة والنظرية. إنّ الشخصيّة المركزيّة لهذه المحاولة لم تعد فانون، ولا أدورنو، وإنّما لوكاش(G.Lukacs)، ليس كلّ لوكاش بل كتاب (التاريخ والوعي) (1923م). وأخيرًا، ليس كل الكتاب؛ بل الفصل الرابع منه، والمخصص ل«التشيّؤ». في هذا النّص يستعيد لوكاش نظرية ماركس حول فيتشية السلع، حين يصير الشكل السلعي عالميًا. إنّ فيتشية السلع هي الظاهرة التي بموجبها تتحوّل السلع إلى حاملٍ لعلاقات (الإنتاج) بين في نظام الإنتاج الرأسمالي، وهي تعطي، بذلك، الانطباع بأنّ العلاقات الاجتماعية للإنتاج هي علاقات بين الأشياء. لم تعد الأشياء (الغالية منها خاصة) هي التي تمثل البشر، ولكن البشر هم يمثل الأشياء، ويتحولون، بذلك، إلى ممثلين للسلع. قيمتهم تصير خاصة) هي التي تمثل البشر، ولكن البشر هم يمثل الأشياء، ويتحولون، بذلك، إلى ممثلين للسلع. قيمتهم تصير خاصة) هي التي تمثل البشر، ولكن البشر هم يمثل الأشياء، ويتحولون، بذلك، إلى ممثلين للسلع. قيمتهم تصير خاصة) هي التي تمثل مورة بقدر ما صار لهم ثمن، تنتمي هذه المرجعية إلى الفلسفة النقدية.

لا يعلّق سعيد، هنا، على نظرية نقدية من أجل أن يحلّلها باعتبارها كذلك، ولكن لكي يكشف أن قوّما الأوّلية تضعف مع إعادة صياغتها؛ لأن العلاقات العملية ترتخي بذلك بالضرورة. فهو يتموقع في منظور نقدي لا معياري. اشتغل سعيد على مفهوم النظرية المسافرة. وهذا ما كتبه سنة (1994م): «إنّ المرة الأولى، التي تُسجَّل فيها تجربة إنسانيّة ، ثمّ تُصاغ في ألفاظ نظرية، تتأتى من كونها مرتبطة مباشرة، ومستفزّة عُضويًّا، بظروف تاريخيّة واقعيّة »  $^{8}$ . ينصبّ اهتمام سعيد هنا على السبق  $^{9}$  أي ما تمّت صياغته للمرّة الأولى. يبدو أن قدر نظريةٍ ما غامضٌ بضرورة منطقيّة؛ قوتما المتراخية تتحوّل إلى بديل جامعي لما كانت عليه قبل. تتشيّأ فتصير سلعةً، تتحوّل إلى فيتشية، وهو الوضع الذي عليه حاليًا «الدراسات ما بعد كولونيالية » .

لقد تمّت استعادة أفكار لوكاش من طرف لوسيان غولدمان (L. Goldman) في فرنسا، ورايموند وليامز (R. Williams) في إنكلترا، لكنّها، بالنسبة إلى سعيد، فقدت لونما وحدّتما. لقد أصبحت بسرعة نوعًا من «الأرثوذكسية الوثوقيّة» . إنّ استعادة الحجة، عند سعيد، تسمح بظهور فكرة أنّ فك الارتباط بين النظرية

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - Reflextions sur l'exil, p. 702.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> - Ibidem,701.

<sup>&</sup>lt;sup>3</sup> -Reflexions sur l'exil, op.cit.p. 554.

ورهاناتها العملية تقود إلى طريقة محلاة في التفكير (يتكلمون اليوم عن نسخة محففة)، مهما كان العمل الفكري لامعًا. إنّ السّخط على الممارسةهو منع مؤسف للاستثمار. لا يهم كثيرًا، أن نقول أشياء من دون غيرها، أو نعبر عن أنفسنا أو لا نفعل،إذ كان لما نقوله من دلالة أكاديمية حصريًّا؛ أي أنّه، كما في السابق، هناك مدرسة جامعية تربط نصوصًا بنصوص أخرى، دون أن تربط، يومًا، النصوص بوضعيّات. أمّا المخرج، الذي يقترحه سعيد، فهو مفاجىء حقًّا، وبشكل واقعي: يقترح أن ننتهك، بكلّ بساطة، النظرية التي نحن بصدد صياغتها. إنها الوسيلة الوحيدة لكى نفلت من التكرار، ومن ثمّ؛ من الموت الجرّد.

يمكن فهم المنفى عند سعيد على وجهين؛ فهو يقف أمام عينيه كشرط واقعي و/أو استعاري؛ «حتى المثقفون، بوصفهم أعضاء كاملين في المجتمع، يمكن أن ينقسموا، بصورة ما، إلى مجموعتين: هؤلاء الذين هم كذلك بالفعل، وهؤلاء الذين ليسوا كذلك. من جهة هؤلاء الذين ينتمون إلى المجتمع، كما هو ويبتهجون فيه، دون أن يكونوا مفخخين بأيّ إحساس بالصّراع، أو بالفتنة... ومن الجهة الأخرى، هؤلاء الذين يقولون لا، أفراد في معارضة مجتمعهم، مارقون ومنفيون ما إن يتعلق الأمر بالامتيازات والسلطة والشرف» 1.

ولهذا، بالنسبة إليّ، يقترح سعيد مغادرة الأرض الصلبة دون ترك أثر. إنّنا، عادةً، نميّز في تمثّلاتنا للأرض من البحر، كما اليقين من اللايقين، الأمن من الخطر، التجربة من التجريد في الأخير. أن ترسخ في الأرض هو أن تكون نثريًا، لا تمتّم إلا للمسائل المادية أو العملية. أن تضع رجليك على الأرض هو أن تكون واقعيًا، أن تملك حسًا عمليًا. في مقابل ذلك، إن المياس يحيل إلى التردد، إلى الشكّ واللاقرار، وفقدان المعالم. يعلمنا القاموس، مع ذلك، أنّ الرسوخ جاء من لغة بحريّة لوصف ممارسة الملاحة الساحلية.

إنّ الفضاء البحري، بحرًا أو محيطًا، يمثّل العوالم البينية التي لا تتقاطع، لا مع مكان الانطلاق، ولا مع مكان الوصول. في البحر، نكون، بشكلٍ ما، ملزمين على معرفة أين نحن، على حساب الموقع (خطوط الطول ودوائر العرض)، وعلى استعمال البوصلة. إنّ الملاحين يعرفون كم هو كبير وقع فقدان الوجهة المكانية والزمانية للملاح، على متعته الكبرى، ولكن أيضًا، هلعه، إذا لم يكن رعبه كما في رواية موبي ديك (Moby Dick)، وإلا فممّن تكون هذه العوالم البينية مأهولة؟

حين اخترع بول جيلروي (Paul Girlroy) (أتلنتك السوداء)، فقد كان اهتمامه منصبًا على خصوصيّة مكان لا يمكن اختزاله إلى أوربا، أو أمريكا، أو حتى أفريقيا، وقد استلهم ذلك من (الاستشراق) لإدوارد سعيد؛ ففي حوار له مع مجلة (موفمتس) (Movements)، يقرّ: «أردتُ كتابة كتاب حيث يكون، جزئيًّا، مثل (الاستشراق)، بالمعنى الذي أردت فيه أن أقترح نمطًا من التقارب يمكن استعماله في

<sup>&</sup>lt;sup>1</sup> - E.Said, des intellectuelles et du pouvoir (1994),p.69.

<sup>&</sup>lt;sup>2</sup> - Jim Cohen et Jade Linggard, de l'atlantique noire à la mélancolie poscoloniale, mouvments, n 51,p. 90-101.

اختصاصات أخرى. في لغاتنا، وهو ما يصدق خاصة على الفرنسية والإنجليزية، يرتبط مفهوم الثقافة كثيرًا بالأرض، وبالزراعة، وباليابسة، إننا لا ننظر إلى المحيطات، والسفن، والتجارة، كأماكن للثقافة. فالثقافة تبدأ مع الأرض الصلبة، وكل ما سواها لن يكون إلا فسحة وفاصلة، أنا لا أتفق مع كل ذلك»، رمز العوالم البينية هذه ومؤسستها: شعار ل «الممر الخلالي». يشير جيلروي بهذا إلى الروابط بين العالم البحري والناشطين المناهضين للعبودية. فالإنجليزي جيمس ويدربورن (J. Wederburn)، مثلًا، الذي كان ابنًا لتاجر عبيد من امرأة مستعبدة، وقد كان ينادي، في انعطافة القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر، بقتل كل أسياد تجارة الرق، كان، بدوره، يعمل في البحرية، وينحدر من هذا الواقع المدعو إلى التعدّد ذهابًا وإيابًا. كما أنّ نظيره الأمريكي الشهير فريدريك دوغلاس (F. Douglas) كان، بدوره، ربّنًا لسفن تجارة العبيد. إنّ المكان متحركٌ بشكلٍ متقاطع.

ريتشارد رايت (R. Wright)، مهاجرٌ في فرنسا، ومألوف لسارتر، وبلانشو (M. Blanchot)، وباتاي (G. Bataille)، ينظر إليه كأنّه مصابٌ بعدوى هؤلاء، اعتُبرت أصالته فاسدة، فالترجمة الإنجليزية له (خطاب الكارييب)، لإدوارد غليسون (E. Glissant)، حذفت كل إحالة لإلى دولوز وغتاري (F. Guattari)، كما لو أخّا تُنقص من أصالته. كل القرّاء لا يقدّرون النظريات المسافرة، ولهذا، يجب أن نحب، كما يفعل سعيد، قصص البحارة، وأن نعرف العوالم البينيّة، وأن يكون لنا خاصّة، ذوق المستقبل، فبهذا الثمن، فحسب، ترتحل المعارف.